فقه التّوازن

بين حقّ الله في الشّعائر
وحقّ العباد في المعاملات

تمكين
TAMKEEN

KNO SCHOOLS
EMPOWERING HUMANITY

360
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY
KNO SMART SCHOOLING

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس مجلس إدارة مجموعة تمكين الاستثمارية
رئيس مجلس أمناء سلسلة مدارس كينو الخاصة

تخيّل نفسك تقف على حبلٍ مشدود بين قمّتين شاهقتين، تحمل في يدك اليمنى مصباحاً يضيء طريقك نحو السماء، وفي يدك اليسرى سلّة ممتلئة بأرزاق الأرض وحاجات الخلق، وتبدأ بالتأرجح بين الجانبين، فتكاد تسقط مرّة نحو اليمين فتنسى ما في اليسار، وتميل أخرى نحو اليسار فيفلت منك نور اليمين، وهذا المشهد ليس للتّخيّل وحسب، إنّما هو حياة المسلم في زحمة الزمن المعاصر...

ولكنْ... أحقاًّ نحن على حبل؟ أم أنّ الطريق أوسع ممّا نظن؟ وهل التّوازن يعني أنْ نقسم أنفسنا نصفين: نصف للّٰه ونصف للدّنيا؟ أم أنّ اللّٰه يريدنا كاملين في كلّ موقف؟ وهل العبادة تنتهي عند باب المسجد؟ أم تبدأ منه لتملأ شوارع الحياة كلّها؟ وهل العدل مع النّاس ينقص من رصيد القرب من اللّٰه؟ أم أنّه هو نفسه عبادة ترفع الدرجات؟

إنّ كلّ ما سبق من تساؤلات تدفع المسلم ليطرح على نفسه أسئلة أعمق، فتراه في حيرة من أمره كيف يوفي حقّ اللّٰه في عبادته، وكيف يحقّق العدل مع مخلوقات اللّٰه؟ وكيف يجمع بين سجدة في المحراب، وصدقة في الطريق؟ وبين ركعات الليل، ومواقف النّهار؟ وبين حقّ الرّوح في السموّ، وحقّ الجسد في الراحة؟ وبين واجب الأسرة، ودعوة الأمّة؟ فهو في معمعة هذه الحيرة يسعى لمعرفة كيفيّة تطبيق فقه التّوازن في حياته...

وهنا يستوجب عليه أنْ يدرك أنّ فقه التّوازن ليس مجرّد مصطلح شرعيّ يُحفظ ويُردّد، بل هو منهج حياة متكامل، يصنع إنساناً متوازناً لا ينفصل عن السّماء وهو يمشي في الأرض، ولا ينسى الأرض وهو يتطلّع إلى السماء، ويعمّر الدنيا بنيّة الآخرة، ويعبد اللّٰه في كلّ لحظة من لحظات عمارتها، فهذا الفقه هو الذي يحوّل كلّ حركة إلى عبادة، وكلّ كلمة إلى ذكر، وكلّ معاملة إلى قربى، ويحوّل حياته بأكملها إلى عبادة واحدة متّصلة..

وهذا يستدعي منّا وقفة عند طرفيّ هذا التّوازن، وسبراً لأغوار كلّ من عبادات الشّعائر، وعبادات التّعامل...

فعبادات الشّعائر هي حقّ للّه، تمسّ القلب والجوارح،وبها تتحقّق عبوديّة اللّه بأكملها بلفظ الشهادتين، وتتجسّد عمليًّا بدءاً بالصّلاة، التي قال عنها سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]، مروراً بالصيام، الذي قال فيه اللّه تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]، وصولاً للزكاة، التي تعدّ حقًّا مشتركاً مع حقّ العباد، وقد قرنها اللّٰه بالصّلاة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾(البقرة:34)، انتهاءً بالحجّ، الذي قال فيه اللّٰه تعالى:﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]، وهذه الشّعائر توقيفيّة لا يتعبّد بها إلاّ للّه وفق ما شرع، مبيّنة الإخلاص والنيّة، وتقوم بتطهير النّفس وتزكيتها من أدرانها ورفعها إلى مقام الإحسان، فهي ليست مجرّد طقوس، إنّما هي محطّات تربويّة تعلّم الفرد النّظام والانضباط والخشوع، وتدرّبه على الصبر والتعاطف مع الجائعين، وتطهّر قلبه من البخل والشّح، وتعلّمه المساواة والتّواضع...

أمّا عبادات التّعامل، فهي حقّ للعباد، وتعدّ بمثابة ساحة الامتحان الحقيقي، وهذه التّعاملات تشمل علاقاتنا الإنسانيّة بأكملها، من علاقات مالية تشمل البيع، الشراء، الإجارة، والشراكة، وعلاقات أسرية تشمل البر، الصلة والإحسان، وعلاقات اجتماعية من حسن جوار، الزمالة، وصداقة، وحقوق عامة كالنّصيحة، الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، هذا وتقوم هذه التّعاملات على أسس ومبادئ الإسلام من عدل وإحسان: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90]، ورحمة وأمانة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]، مع الأخذ بعين الاعتبار المصالح المرسلة وقواعد الضرورات ودفع المفاسد، ممّا يجعلها قابلة للتطوّر والاجتهاد بما يحقّق مقاصد الشريعة...

وبين هذه العبادات وتلك، يظهر التوازن في الحياة....

ومن يعرض عن إحدى هذه العبادات، فقد انحرف عن فقه التوازن المنشود، وسيكون كما وصفه الرسول ﷺ بالمفلس، فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول اللهﷺ قال: " أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إنّ المُفْلِسَ من أُمَّتي يَأْتي يَومَ القيامَةِ بصَلاةٍ وصِيامٍ وزَكاةٍ، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا من حَسَناتِهِ وهذا من حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه، أُخِذَ من خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ"، فهذا الحديث يكشف أعظم انحراف عن فقه التوازن، فهو يرينا رجلاً عابداً صلّى وصام وزكّى، أي قام بعبادات الشّرائع، ولكنّه ظلم وشتم وقذف وأكل الأموال بالباطل، وسفك الدّماء، أي أعرض عن عبادات التّعامل، فكانت النتيجة الإفلاس الأبديّ رغم عبادته...

وهذا يقودنا إلى أنّ العبادة لا تنفع مع ظلم ولا تؤتي أكلها، لكون حقوق اللّه تعالى مبنيّة على المسامحة، وحقوق العباد مبنيّة على المشاحّة، فالميزان الحقيقيّ ليس كم ركعة صليّت وكم آية حفظت، إنّما كيف عاملت الآخرين، فالتوازن ها هنا واجب، ولا يغني فيه جانب عن جانب، والمفلس الحقيقي من خسر الآخرة وإنْ ربح الدنيا، والمعادلة الفائزة هي المعادلة التي تحقّق هذا التّوازن، ويكون ذلك من خلال؛

تحويل العبادات لمصنع للأخلاق، فالصلاة تنهى عن الفحشاء، ومن لم تنهه صلاته عن فحشاء فلا صلاة له، والصيام يعلّم الصبرفمن لم يصبر على الناس فما صام حقًّا، والزكاة تطهّر من البخل، فإنْ بقي الإنسان بخيلاً فلا زكاة له، والحجّ يعلّم التواضع، فإنْ بقي الإنسان على كبره وغطرسته فكأنّه لم يحجّ...

تحويل المعاملات الصالحة لعبادة، وفي ذلك يقول النبيّ ﷺ: "التّاجر الصدوق الأمين مع النبيّن والصدّيقين والشهداء"، فنيتك في عملك إذا صدقت النية تجعل عملك عبادة، والإحسان إلى الخلق يصبح صدقة جارية، والكلمة الطيبة والابتسامة صدقة...

فالمعادلة بسيطة كالآتي :

الإيمان الصادق(التّوزان) = (شعائر خالصة) + (معاملات عادلة) + (نية صالحة)

وعلى الرّغم من بساطتها إلاّ أنّ هناك العديد من التحدّيات التي قد تواجهنا وتقودنا للزّلل ونحن نغذّ الخطا نحو تحقيقها، ومن هذه التحدّيات والزّلّات؛

الرّوحانيّة المفرطة؛ من خلال التركيز على العبادة والزهد وإهمال الحياة، وهذا يقود للعزلة، الكسل، وترك الأمر بالمعروف، وقد قال اللّٰه تعالى لعصمتنا من هذا الزلل والتحدّي: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77]

الماديّة المحضة؛ من خلال الانشغال بالدنيا وترك الفرائض، وهذا يقود للغفلة، القسوة، وفقدان الهدف، وفي ذلك يقول اللّٰه تعالى:﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 37]

الازدواجيّة؛ من خلال النّفاق الدينيّ فهناك تديّن شكليّ ظاهريّ، وسوء خلق تعامليّ، وهذا يقود للنفاق، سوء السمعة، وإفلاس الآخرة، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾(المنافقون:1)

وعلى الرّغم ممّا قد يعترضنا من زلاّت وتقصير في هذا المسعى، إلاّ أنّ التّأمّل في سير الصالحين يمنحنا الأمل والإلهام، إذ نجدهم قد خاضوا الطريق ذاته، وحقّقوا التّوازن المنشود بين عمارة الدنيا وعمارة الآخرة، فكانت حياتهم شاهدة على إمكانيّة الجمع بين الأمرين دون إفراط أو تفريط، فهذا أبو بكر الصديق رضي اللّٰه عنه، كان في العبادة من أكثر الناس بكاءً من خشية اللّٰه، وفي المعاملة من أرحم الناس وأرفقهم بالضعفاء، وفي الإنفاق فقد أنفق ماله كلّه في سبيل اللّٰه، وذاك عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه، كان هو أيضاً في العبادة يقوم الليل حتى تتورّم قدماه، وفي المعاملة عادلاً يستهجن استعباد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، وهذا عثمان بن عفان رضي اللّٰه عنه، ففي الكرم فقد جهّز جيش العسرة بماله، وفي التّعامل فقد كان سمحاً شديد الحياء رقيق المشاعر...

وبعد،

فإنّ ما سبق من سبر لأغوار فقه التوزان يوضّح أنّه ليس ترفاً فكرياً، إنّما هو ضرورة إيمانيّة وحاجة حياتيّة، تقتضي ألاّ نكون عبّاداً في المساجد ظلاّماً في الأسواق، وألاّ نكون تجّاراً ناجحين غافلين عن الصّلاة، وألاّ نكون محسنين للبعيد قاطعين رحم القريب، فالإيمان الكامل يقتضي عبادة صادقة وخلقاً حسناً وعملاً نافعاً...

اللهمّ ألهمنا رشدنا، وقنا شرّ أنفسنا، واجعلنا ممّن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، واجعل عبادتنا خالصة لوجهك، ومعاملاتنا عادلة مع خلقك، وارزقنا حسن الخاتمة...

اللهمّ آمين....